رسالة قصيرة

كانَ ذلك يوم السبت. أفَقْتُ ولم آكل.. اليوم آخر أيامي، فكّرت. بعد ثلاث ساعات يأتي الرفيق ويسلّمني السّيارة المفخّخة.. ربّي، هل أنجح في قيادتها إلى الهدف؟ هل تمزّقني وتقتل عشرات الجنود، أم أذهب سدى؟

عندما قرّرت الموت كانَ ذلك منذ أسابيع فحسب.. كرهتُ النفاقَ والمزايدات وكرهت العنتريّات. وقلت في نفسي: لأستشهد بصمت ولأقتل العدد الأكبر.. لكنّ الهول بدأ يتسرّب إلى كياني.. ثم بدأت أرى عبثاً في محاولتي. لِمَ أموت؟ ليستغلّني الطوائف والزعماء، ولأصبح فرداً زائداً في هذه الطائفةِ أو ذاك الحزب.. ثم طردت منّي الوساوس، وعزمت على التضحية بنفسي وليكن ما يكون.

السيّارة فيها خمسون كيلوغراماً من الإيكسوجين، أي ما يُعادل مئتي كيلوغرام من الـ ت. ن. ت. وقد شدّدت على الرفيق أن يُكثر المسامير والزجاج.. فمن لم يمت بالنّار، فَلْيُعَقْ أو فلتُمَزَّقْ يده أو عينه. حقدي لا يرحم. ارتديت ملابسي وخرجت. جَاءَ الرفيق، وببرودة أعطاني مفاتيح السيّارة وودّعني بسرعة.

كل شيء «يسير على ما يُرام».. مقود السيّارة خفيف طريّ، ومفتاحُ السُّرْعَة على الأرض. لكنّي خائف، ليس على نفسي.. بل على امرأتي وأطفالي.. كانَ هذا ما منعني من ارتكاب أيّ عمل متهوّر.. ثم حقدت، وآمنتُ بالثورة.. وكرهتُ المُنافقين الذين يقولون إنهم ضد الانتحار وإنهم مع الحرب الشعبيّة الطويلة الأمد.. كم هم قِصارُ النَّفَس أولئك المتعبُون!

قريباً أضغط على الزرّ.. تحسّسته بأناملي.. تحسّسته بهيبة.. دُعاةَ الحرب الشعبيّة.. كبسة زرّ فقط تساوي كلّ كُتُبكم وخطبكم وندواتكم ولقاءاتكم.

زر.. زر..!!

الزرارية، قريتي. أمس دخلوها وقتلوا عمّي وابنة الجيران وغيرهما.. ثم كتبوا على الحيطان: هذا انتقام جيش الدفاع الإسرائيلي.. قالت الجرائد: كتبوها بدمنا.. ولم أعلم إذا كانَ دمنا بالفعل.. لكنّه دمنا على أيّ حال، أو ليسَ الحبر الذي يكتبون به من دمائِنا؟

قريباً أنفجر.. ها هو الحاجز، وها هو العدوّ.. لم أرَ أمامي أرضَ الجنوب ولا زهرها ولا أقحوانها.. لم أرَ السنابِل والشمس التي تغضُّ طرفها.. كذب الشعراء.. نحنُ الشهداء لا نَرَى كُلَّ هَذا.. نَرَى عدوّنا فقط.. ولا نتمنى أن نصير ماء يسقي التراب.. لأننا، ببساطة، لا نرى التراب.. نتمنّى شيئاً واحداً فقط: أن تصير كل خليّة فينا سكيناً، أو زجاجاً، أو مسماراً، أو ناراً يعلق بعنق الجندي فيريق دمه.. إسألني. أنا هكذا أحسست.. إسألني.. عندما ضغطتُ على الزرّ تناثرت أشلاء وصارت هذه الأشلاء تضرب الجنود على غير هدى. لا أعرف كم جندياً قتلت.. قالت الإذاعة ثاني يوم استشهادي إنّهم أربعون.. لعلّهم مبالغون.. ليت لي أن أقتل هذا العدد.. لا أعتقد أني قتلت أكثر من ثلاثة حقيرين، لكنّي لست نادماً. ما بعثَ في نفسي القرفَ تلك البياناتُ والتصاريح التي حملت اسمي، ولم تكن لي علاقة بأيّ منها.. بل إن إحدى الجهات لم أسمع بها طيلة حياتي.. قرفت، وقلت ليتني أعيش ليوم واحد فقط حتى أكذّبهم..

قبل أن أموت، لم أظهر على التلفزيون، ولم أُشِدْ بأحد.. قلتُ في نفسي فلأمت كما يليق بالشهيد أنْ يموت.. لم يكن موقفي هذا استنكاراً لمواقف غيري من الشهداء الذين سبقوني.. فهم علّموني التضحية.. لكنّي كرهت أن أُجَيِّرَ دمي لأحد، فدمي أغلى منهم كُلّهم، وبدون استثناء.. لم أُشِدْ بأحد لأنّ معظم الزعماء لا يساوون «سرمايتي!»

ترى هل راهنت كثيراً على استشهادي؟ رُبّما.. فالجميع ما يَزال يحكي بالوفاق، أي وفاق الطوائف، ويحكون في الوقت نفسِه عن التغيير. رُبَّما ذهبتُ سدىً. ولكن ما هَمّ.. المهم أنّي قتلتُ ثلاثة، وثكّلت أمهاتهم، دفّعت الدولة العدوة ثمن تعويضات لأهاليهم.. ما همَّ.. فإن أكن لم أكرس نهجاً جديداً في النضال، فلعلَّ رفاقي القادمين يفعلون!

(طبق الأصل)

سماح...